رواية « سفينة وأميرة الظلال »

للأميرة مها الفيصل

بقلم: غدير بدر عبيدات
الأردن

صدرت الرواية الثانية للروائية مها محمد الفيصل بعنوان «سفينة وأميرة الظلال» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان / بيروت . وتقع في ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط.

تتكون الرواية من ثلاثة وعشرين مفصلا، كل منها معنون بعنوان يقوم الراوي الرئيس «سهل» بنقلنا بين هذه المفاصل وقد كان راويا شاهدا أو مشاركا في الأحداث، مستخدما ضمير المتكلم لمزيد من الإيهام بحقيقة ما حدث وهذا ما جعل السرد يجري دون عقبات تضعف المبنى الحكائي الذي اتسم بالتنوع، فنجد تنوعا في الشخصية وتنوعا بالمكان وتنوعا في الزمان وتنوعا في الأحداث وتنوعا في التقنيات، هذا التنوع الذي خدم الرؤية التي احتوتها الرواية .

يمكن تصنيف الرواية ضمن الرواية الرمزية التي استخدمت فيها اللغة الملغزة، فكل شخصية لغز، وكل جملة لغز . توالت الأحداث لحل كل تلك الألغاز إضافة إلى البعد العجائبي الذي غلف الشخصيات والأحداث والأزمنة مما جعل الرواية مفتوحة لتعدد القراءات وتعدد الأفهام . ولعل الغلاف الخلفي للرواية بما يحتويه من آراء للنقاد يجعلنا نقف عند حقيقة هي أن كلا منهم فهم الرواية وتبصر فيها على نحو مختلف ولكنه غير متناقض مع الآخر . وهذا بعض من آراء النقاد:

« ... هي قطعة من ذلك الديباج السحري الذي قُدَّت منه «توبة وسُليى" ولست أحسب إلا أننا نفيء بهذين العملين الرائعين، إلى أريكة وارفة الظلال، ستكون مستردا لطلاب الأدب الحق» .

يقول الدكتور صلاح فضل:

« .... تضرب هذه الرواية الممتعة، بجذورها الغائرة في قلب الأسطورة العربية تستصفي حكمتها البليغة وتستقطر نورها الرائق لتقدم أمثولاتها الرمزية للحياة .. بنماذجها الغنية وظواهرها الملغزة، موظفة أساليب وتقنيات فنية جديدة .. مما يجعلها إضافة نوعية مدهشة للسرد العربي الحديث، تنبع من تراثه الخصب لتكسبه نضرة الروح المتجدد الأصيل..».

وضمن هذا أسجل قراءتي للرواية وكي لا نقع في فوضى لا بد من تأطير محاور القراءة:

١- الشخصية .

٢- الحدث، الفضاء المكاني، الزمان.

٣ - اللغة والرمز والتقنيات.

الشخصية:

تنقسم الشخصيات في الرواية إلى قسمين:

أولا - شخصيات إنسانية، أبرزها سهل وسفينة.

ثانيا - شخصيات مؤنسنة، السلحفاة، زخرف، الحوت ...

ولعل في هذا إشارة إلى الرمزية التي حفلت بها الرواية. فسهل شخصية سهلة من حيث الاقتناع وسرعة الانفعال وبساطة التفكير.

ولعله الشخصية الوحيدة في الرواية التي لم يتوقف تغيرها وتطورها إلا عند النهاية. فسهل يمثل الإنسان الواقعي بكل عيوبه وسماته فهو يعكس طبيعة البشر من حيث جمعه بين المتناقضات، أما أميرة الظلال فهي أميرة لا تستشعر عظمة النعم حتى استحالت إلى أميرة للظلال ظلال الحزن والعذاب الإنساني الذي يبحث عن خلاص من الهم والحزن الناتجين عن البعد عن الحقيقة . وهذا ما يجمع بينها وبين الفتاة اللطيفة سهى وغول الفلاة من حيث انشغالهم بالوهم عن الحقيقة، مع تفاوت مستويات هذه الغفلة. أما سفينة فهي شخصية استثمرتها الكاتبة استثمارا متميزا، فسفينة بما يعنيه أبعاد الاسم الرمزية هو رجل عظيم في أخلاقه وعفته وكرمه، وهذا ما يتبدى في أحداث كثيرة، ومنها عندما كان قابعا في البئر، حيث رفض محاولات سهل للخروج رغم أنف زخرف ذلك الثعبان الذي سخر لخدمة الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي غدر به، وفي هذا عكس للرمز المعتاد من أن الأفعى رمز للغدر.

والثعبان زخرف والسلحفاة حسونة والحوت نون شخصيات أُنسنت، وهي رمز للطبيعة التي تكلمت وتآلفت وتحاورت مع البشر لحل اللغز والوصول إلى الحقيقة . وقد كان لديها الحكمة والبصيرة التي تنقص البشر الذين لوثت بصيرتهم ما ران عليها من فعل الغفلة، فقد أعانوا البشر « أميرة الظلال» وهي رمز وليدة الحزن والحب الشقي الذي جمع بين أبوابها في عجائبية وعوالم أسطورية، غلفت الرواية من أولها إلى آخرها، وقد أبدعتها الكاتبة بخيالها الطلق فلم تأت تقليدا أو نسخا بل فرادة وتميزا إذ تنوعت الشخصيات كما تنوع المكان والحدث .

« .... وجدتها تجلس على بساط ما رأت عيني قط أحسن من هذا البساط، وأجمل من تلك الفتاة .

كان البساط مختلف الألوان، دائم التجدد، فلا يصيبك ملل من طول تأمله، ولا من تأمل تلك الفتاة والنظر إليها، لغرابة البساط، ولتمام حسن الفتاة ... ولملاحة في عينيها.

لكن ما شدني أكثر كان وشمة حزن معلقة كنجمة متلألئة بين العين والوجنة .

دمعة .. تشع نورا وكأنها من الجوهر » .

الحدث والفضاء (المكان):

لعل الحدث والمكان ترافقا في هذه الرواية حتى تماهى أحدهما في الآخر، فكل حدث كان في مكان وكل مكان كان فيه حدث . تنوع الحدث بقدر ما تنوع المكان وأحيانا كان المكان يحدد الحدث الذي يقع فيه .

وهكذا تعددت الأماكن تعددا غنيا، فمن اليابسة إلى البحر، ومن القصر إلى الكهف، ومن المساجد إلى الأسواق، ومن الأسوار إلى التلال.

فالقصر الذي طلبت فيه أميرة الظلال الطلبات الملغزة حددت مسيرة الراوي والرواية . ومع تنوع المكان كان القارئ أمام لوحة كونية نطق فيها كل شيء في الكون إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة .

فقرية دخان التي تزرع كل ستة أشهر، وتطلب العلم ستة أشهر هي قرية لا تشبه القرية الواقعية، بل

هي أشبه بقرية أسطورية في مدينة أفلاطون التي تخيلها، أو في أحد الكواكب البعيدة عن أرضنا إذ لم نجد في أصحابها إلا الفضيلة وهي قرية مسالمة آمنة لم يخطر ببال القارئ أن يصل البشر إليها، لكن هلباجة تلك الشخصية النسائية التي ترمز للغواية والعبث والشهوات نجدها تعبث بصاحب التجربة الناضج (سفينة) وبقليل التجربة (سهل) هذا العبث قد يكون له حد فيصحو الإنسان منه، وقد يتماهى في الغواية، وتتماهى الغواية فيه فيضع كل ما هو فاضل وسام . وهذا ما نجده في السوق الذي تباع فيه جنة عرضها السموات والأرض، فالعدو للإنسان على اختلافه هو الغواية والشهوات التي تتركه في حالة الغفلة . وبقدر مجاهدة هذا العدو يكون الترقي في المعرفة والحب، فسفينة وسهل مثلا ضحيتان لهذه الغواية إلا أن أحدهما ارتقى وتسامى وهو (سفينة) فانفلت من حب هوى إلى ما هو أعلى منها ومن كل الوجود . أما (سهل) فصار أكثر معرفة إلا أنه لم يبلغ مبلغ سفينة، فالمكان ارتبط بالحدث والحدث حفر في الشخصيات آثاره.

وفي الفلاة يتضح جانب آخر في الرواية هو انقلاب الأشياء رأسا على عقب، حيث القرد يمتطي أسدا . وانقلاب الأمور وصل إلى كل شيء حتى تغيرت طبائع الأشياء، فالغول الذي يروع البشر أراد ترك ذلك كي يغني، ويبدو أن الغول تعلم من البشر أن السلعة الرابحة هي الغناء، حتى وإن كان لا يمتلك موهبة الصوت الجميل . ولعل هذا إلماح إلى ما نراه في وقتنا الحاضر مما يسمى غناء وقد استحال إلى سوق نخاسة !.. وبتغير الأماكن وتنقل الراوي بينها ازداد علما ومعرفة بحقائق الأشياء وهو لا يتوقف عند الظاهر والقشور، فحادي الأرواح وسوق العقول يجعلان الراوي ومعه القارئ يخلص إلى أن كل ما هو باطل زائف سيفنى، وكل ما هو حق وعادل سيبقى، وهذا ما نراه في الجزء الأخير المعنون بالخلاص. فالراوي سهل أصبح أكثر نضجا وأقل خوفا، لذلك لا يخشى الموت، فقد رأى في الموت بوابة ستوصله إلى الحق المطلق والعدل المطلق . ولو توقفنا عند قصة قارون التي أوردت الكاتبة بعضا منها نقلا عن القرآن الكريم لوجدنا أن مناط الرواية دار بين الدنيا والآخرة. والمعرفة والجهل، والباقي والفاني، والظاهر والجوهر، والرضى والسخط . وقد تنوع الزمان تبعا لتنوع المكان فهناك الزمن الواقعي والزمن النفسي والزمن الخرافي إضافة إلى الزمن الخطي .

« ... خرجت وسفينة، حسونة، فسرنا، إلى حيث أم الرمال لنجدها كما ظننا، تجلس في واحة عظيمة يظهر بجانبها جبل اللوز وتعلوها أشجار نخيل شامخة، وقد تدلى منها البلح كأنه الذهب لشدة اصفراره، نادت عليها: تفضلوا ضيوفا مكرمين . عندما اقتربنا منها قالت: وهل أتيتم لتروا عين الطاووس ؟ قبل أن يجيب أحدنا قلت: نعم . نظر إليّ سفينة بدهشة، وهمس في أذني: والله إنك لعَجِل يا سهل !».

اللغة والرمز والتقنيات

كل ما كان في الرواية من عناصر كان ملغزا ابتداء من حوار سهل وأميرة الظلال إلى رسائل هوى ودرة العرفان ... وهذا يدل على تمكن الكاتبة من اللغة، فقد استخدمتها هذا الاستخدام الذي أبقى القارئ مشدودا بحبل التشويق والتطلع إلى حل هذه المعضلات، وكل ذلك جاء بلغة عالية موحية .

وظفت الكاتبة تقنيات متعددة مثل السرد الذي تعدد رواته وتعددت الرؤية بناء عليه مما أعطى النص إضافة وغنى وظفتا تقنيات التلخيص، فاقتصرت على ما يلزم ويخدم هدف الرواية وبنائها، فلم نعرف مثلا الزمن الذي قضاه سفينة في البئر . ولا نعرف كيف وظف من قِبَل مَنْ ليخدم المسجونين، وكل ذلك كثف إيحاءات الرواية في نص غلبت عليه خاصية التنوع في كل عنصر من العناصر في نسج محكم يترك القارئ متأملا مفكرا في كل جملة منها .

« قاطعني سفينة ضاحكا: ما أعجب هذا الغول يا سهل، أيمل غول مما فطر عليه ؟ ! قلت: يا سفينة لقد ألفت نفسي العجائب: أميرة تطلب المستحيل، وأسد صار مطية لقرد، وغول طروب، وأما أنا فكل ما حضرني هو أن أسأله عن اسمه ...». ■